

## المسن في الاسرة الجزائرية: مقارنة في تحليل العلاقات في ضوء التغيرات الحاصلة في الاسرة

أ. زهراوي خروفة

جامعة وهران 2

### ملخص:

تهدف هذه الدراسة التحليلية الى اظهار اهمية التركيز على موضوع الشيخوخة في الجزائر من حيث وضع الباحثين في الصورة من خلال تطور نمو هذه الفئة في المجتمع الجزائري. وقد تعرضت الدراسة الى مفهوم الشيخوخة من حيث الجانب الكرونولوجي والبيولوجي والنفسي والسوسولوجي، وايضا الى التغيرات التي مست الاسرة الجزائرية من حيث البنية والوظيفة واثار ذلك على التكفل بفئة الشيخوخة.

### 1. اهمية الموضوع واهدافه:

تهدف هذه الورقة الى لفت الانتباه الى وضع المسن في المجتمع الجزائري داخل التحولات التي مست الاسرة، والى ضرورة تحليل العلاقات الاسرية المتغيرة من حيث اثارها على المسن وايضا الى الاهتمام بهذه الفئة على جميع المستويات باعتبارها فئة اجتماعية منا، يؤول اليها جميع افراد المجتمع مهما تباينت طبقاتهم ومستويات.

2. وتزداد الاهمية انطلاقا من مجموعة التنبؤات التي تشير الى تزايد هذ الشريحة في مجتمعنا، فقد اشارت الاحصاءات الى ان عدد المسنين في الجزائر تجاوز المليونين، منها مليون و255 الف رجل ومليون و275 الف امرأة. وقد كانوا قد بلغت نسبتهم 5.06 بالمائة في عام 2002 حسب التحقيق الجزائري حول الصحة العائلية لـ **ONS - MSPRH** وتشير دراسة كريمة بوعزيز (2013) الى ان عدد المسنين في الجزائر الذين بلغوا اكثر من 65 سنة وصل الى 7.5 بالمائة من مجموع السكان. وتتوقع الدراسات الى ان نسبة المسنين في الجزائر قد تكون اكثر اهمية وخاصة مع بلوغ اجيال الثمانينات والسبعينات سن التقاعد ما بين 2030 و2050،

بحيث تبلغ في سنوات 2030 حوالي 14.5 بالمائة من مجموع السكان وتصل الى 22 بالمائة في 2050.

ان هذه الاحصاءات التي تشير الى تزايد هذه الفئة في المجتمع الجزائري تدفعنا الى الاهتمام بهذه الشريحة من كل جوانبها الاجتماعية والنفسية والصحية. ..الخ، والتحضير لهذا التزايد من خلال خلق اختصاصات في هذا المجال في الواقع والتي من بينها علم النفس الشيخوخة.

## 1. مفهوم الشيخوخة:

ان مفهوم الشيخوخة وتحديده يعتبر امرا مهما في هذه الورقة، باعتبار ان تحديد هذا المفهوم انتابه كثير من الاختلاف. وبالرغم من ذلك فاننا نحاول تحديده انطلاقا مما جاء به جان جيرين ( 2003 ) : Jean Gérin :

أ . من المنظور الكرونولوجي: فان الشيخوخة تظهر من خلال المستوى الاجتماعي، بحيث ان معاش نتائجها البيولوجية والنفسية يتم من خلال خصائص الجماعة الاجتماعية والانتماءات الاتنية والثقافية. اي ان مفهوم الشيخوخة يتحدد وفق معيار الجماعة التي ينتمي اليها والمستويات التي تنتمي اليها.

فالشيخوخة بهذا الطرح تنتمي الى فئة اجتماعية تاتي في المرحلة الاخيرة من العمر، وهي تخضع لرؤية اجتماعية وثقافية لها، فكل مجتمع يرى الشيخوخة بمنظار خاص فمنهم من يراها انها مصدر الخبرة والوقار كما هو في المجتمعات الشرقية.

ب . من المنظور البيولوجي: ان الشيخوخة تتحدد من هذا المنظور من خلال مظاهر تدهور العضو الذي يصبح تكيفه مع تغيرات البيئة اكثر بصعوبة باعتبار ان وتيرة العضو تقل او تتخرب بشكل كبير، فقد اشارت بعض الدراسات الى ان تيرة وظائف العضو تقل بنسبة 01 في المائة في كل سنة ابتداءا من الثلاثين ومع فعل التراكم يصبح الامر اكثر صعوبة.

ج . المنظور الاجتماعي: ترتبط الشيخوخة من هذا المنظور بالانتماءات التي تربطنا بالعائلة، وايضا بقنواتنا الاجتماعية. فالتكفل بالشيخوخة يبدأ في الدول السكندنافية في السن 55 وفي

الولايات الامريكية المتحدة في سن 70. اما في الجزائر فننا نتبنى ال 60 من العمر كمؤشر لبداية الشيخوخة باعتباره سن التقاعد الذي يشير في مضمونه الى بداية العجز في العمل، اما التكفل به فيبدا مع سقوطه مريضا، بحيث يكون التكفل عادة من طرف افراد العائلة فقط.

**د . من المنظور السيكولوجي:** ان كل شخص يبني تمثلاته الخاصة بشيخوخته، فالبعض يشعر بها في سن 55 اما البعض الاخر في سن 80. ان هذه التمثلات ذات علاقة بالادراكات التي ترتبط باثر الابوين في تنشئته الاجتماعية، وايضا بالشخص نفسه من حيث خصائص شخصيته ونظرته الخاصة الى نفسه، زد على ذلك تاثير الاعلام الذي يمارس ثقافة ما على الافراد. فالشخص الذي يخاف الشيخوخة، فان شيخوخته ستميز بالنقهر ويتجه الى الاعتماد على الاخرين وينتابه الحزن، وقد ينزلق الى الانهيار العصبي.

اما اذا كان ادراك الفرد للشيخوخة من خلال نظرتة الى المستقبل ستميز باكتشاف الجديد وتقدم في اطار وحدة ذاته. فهو يشعر باهميته في الحياة حتى نهايته.

ان هذه التعاريف التي اوردناها تبين مدى الاختلاف بين مجموع العلوم في تحديد هذا المفهوم، فكل علم ينظر الى هذا المفهوم من زاويته، الا ان الامر قد لا يعدو كذلك حينما نعرف الشيخوخة:

((على انها تقدم في العمر يتميز بتدهور في وظائف الاعضاء وهي مجموعة التمثلات التي تشملها وتحدد بداية التكفل بها ابتداء من سن التقاعد)).

ان الاختلاف بين العلوم قد امتد الى الاختلاف بين الدول في تحديد بداية الشيخوخة لديهم. لذلك فاننا تبيننا مؤشر السن 60 الذي تتبناها التشريعات الجزائرية التي تعتبر ان سن الشيخوخة يتم انطلاقا من هذا السن اي من سن التقاعد.

## **2. التغيرات الحاصلة في بنية ووظائف الاسرة الجزائرية من خلال بعض الدراسات**

وحتى نقارب علاقة المسن في الاسرة الجزائرية يجدر بنا ان نشير الى تطور بنية الاسرة الجزائرية.

### الاسرة الجزائرية: التحولات

تشير دراسة راجية بن علي (2009) المنشور في مجلة شبكة العلوم النفسية العربية العدد 21 - 22 التي تناولت الادوار والوضيعات داخل الاسرة الجزائرية المعاصرة، الى ان الاسرة الجزائرية قد مرت بمراحل متعددة منها:

**المرحلة الكولونيالية:** كانت تعتمد الاسرة الجزائرية على اقتصاد ريفي يهمل التعاملات المالية وتعتبر الارض ملكا مشتركا بين افراد القبيلة او عائلي يلبي حاجيات محلية خاصة، الى ان جاء الاستعمار فبدا بزيج الاهالي ويقم المستوطنين في تلك الاراضي. فتفتت القبيلة من خلال الهجرة، كما حاولت بعض العائلات التمسك اعادة بنائها وفق النمط المعيشي الجديد. ان هذا النمط المعيشي الوافد على العائلة الجزائرية قد عمل على تغيير بنيتها، بحيث تفتت الى عائلات صغيرة لا يوجد لديها مصدر رزق تلتف حوله.

#### بعد الاستقلال:

اتساء الاستعمار حاولت العائلة الجزائرية ان تبقى محافظة على كثير من خصائصها، وبعد الاستقلال انتهجت الجزائر سياسة اقتصادية مبنية على التصنيع والبناء، الامر الذي دفع بالهجرة من الريف الى المدينة، فتأثرت تركيبة العائلة الكبيرة، فقد هاجر عدد من افرادها الى المدينة للعمل الى ان اسسوا اسرا جديدة فيها اي في المدينة ويقوا بعيدين جغرافيا عن العائلة الاصل، الا انها ظلت ترتبط هذه الاسر بالاصل من خلال المناسبات الاجتماعية كالاعراس الاعداد الدينية. الى ان انتهت كثير من الاسر الى الاستقلالية التامة خصوصا بعد موت الاب والام او غياب الشخص المسن كالجدة الذي يوجب المجتمع والدين زيارته.

و من جهة اخرى فان عامل التعليم وتحسن الاوضاع الاجتماعية والتعليمية والصحية لعب دورا في تغيير النمط المعيشي للأسرة، بحيث اتجه الابناء الى نوع من الاستقلالية والرغبة في تاسيس اسر نووية مستقلة، الا انها ضلت ترتبط بالعائلة الاصل ما دام الاب او الام موجودان الا ان العلاقات ستضعف بغيابهما خصوصا غياب الام في غالب الاحيان.

### 3. وضع ودور المسن في الاسرية وفق التغيرات الحاصلة:

## الدور والوضع داخل الاسرة التقليدية:

تشير بعض الدراسات مثل دراسة مصطفى بن تقوشت، الى ان العائلة الجزائرية التقليدية تراتبية ولا وجود لاي فرد فيها الا في جماعة العائلة ومن خلال المكان الذي يشغله داخلها (اب، ام، اخ، جد.. الخ). ولكل سن دوره الاجتماعي المحدد بحيث قد لا يمكن التحول من دور الى اخر لان كل فرد قد نشأ وفق ذلك الدور الا في سياق التغيرات البنوية للأسرة عبر مسارها.

ان هذا النظام يفرض وصاية الكبار على الصغار. ويلعب الاب او الكبير دور القاضي الذي يمارس قرارته على العائلة. ويعتبر الكبير في السن مركز الاحترام بل جسر التواصل بين الاجيال السابقة والاجيال اللاحقة، بحيث يمارس علاقاته اتجاه ابنائه واحفاده وفق النظام التراتبي الابوي داخل الاسرة، باعتباره هو مالك البيت ومالك الارض فهو المنبع الاقتصادي للأسرة.

كما ان قيمة الكبير والخضوع اليه وتبدير شؤونه يعتبر قيمة دينية نبيلة لدى المجتمع الجزائري، بحيث يعتبر من لا يقيم علاقات حسنة ويطيع والديه ب (( فيه دعوة الشر)). ودعوة الشر ترتبط بقيمة دينية واجتماعية مقدسة في الاسرة الجزائرية.

اما الانثى (الجدة) على الخصوص فهي الامرة الناهية بين بناتها وكناتها، فالعلاقات القائمة بينها وبين افراد الاسرة من الاثناث داخل الاسرة والقائمة على طاعتها ومناداتها بالام من الجميع، او ب لالة من الكنة، ولالة يشير الى التقديس بحيث لا يشار بهذه الصفة الا للمرابطين او السادة، وان ذلك ناتج على انها تستمد سلطتها من زوجها الذي يتحكم في كل شئ اقتصاديا واجتماعيا فهي الزوجة القريبة منه، والتي يحسب لها الف حساب باعتبارها ناقلة للاوضاع الداخلية للأسرة للاب. ولا يوجد للجد او للاب مصدر للمعلومات عن اعضاء اسرته واحتياجاتهم الا من خلال الام التي تعتبر القناة الوحيدة التي تمر بها هذه المعلومات، فتختار ما تبلغه به وفق ما تقتضيه مصلحتها وايضا مصالح العائلة او قد تحور المعلومات بحيث تجعل منها اكثر لطافة حتى تجنب افراد الاسرة غضب الكبير وسطوته، او تبلغها كما هي ان كانت مناسبة لاستراتيجيتها. وتعمل الام على المحافظة على بناتها والضغط على كنتها ان كانت مناوءة لها. فهي في الاخير تساهم بشكل فعال

في قرارات الكبير اتجاه افراد الاسرة ان لم نقل تؤثر في توجيهها تأثيرا كبيرا حتى اتجاه الذكور من خلال نسائهم ان كانوا متزوجين.

### الدور والوضع في الاسرة الجزائرية المعاصرة:

بالرغم من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الحاصلة في المجتمع الجزائري، فان العائلة الجزائرية قد اتسمت بالتفتت الى اسر نووية حسب بعض الباحثين، نتيجة مجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية على الخصوص وتطور التعليم وتغير كثير من القيم المرتبطة بالعائلة.

الا ان بعض الدراسات تشير الى الرغبة التي ابدتها الجزائريون اتجاه العيش في جماعة العائلة، فقد صرح 76 % من المستفتين رغبتهم في العيش داخل الجماعة ( La lettre de centre national d'analyse pour la population et developpement, No 52, decembre 2002) وقد لوحظ ارتفاعا محسوسا للأسرة التي يتعدى عدد افرادها اكثر من سبعة منذ التعداد السكاني 1966 حيث كان 38% ووصل الى 84.1 عام 1977 ليصل الى 53 % . ان هذا التطور لا يرتبط بمستوى الخصوبة الذي اضحى ينخفض منذ عام 1966 الى السنوات الاخيرة، بل قد يرتبط بالسكن المشترك ومصدر العيش الواحد الذي يتحكم فيه الاب او الجد حتى وان كانا متقاعدين.

وقد يرجع هذا التواجد المتنامي لافراد الاسرة الجزائرية داخل البيت الواحد الى ازمة السكن الذي ظل قائما الى يومنا هذا بالاضافة الى البطالة التي يعاني منها بعض او اغلب افراد الاسرة او دخلهم الضعيف، الامر الذي جعل منهم يعتمدون على الاب او الجد ان كان ذا دخل حتى وان كان ضعيفا ويملك مسكنا يأويهم.

ومن جهة اخرى فقد يميل افراد العائلة الواحدة الذين يسكنون في بيت واحد الى وجود مجموعة من الاسر المستقلة اقتصاديا في مجال جغرافي واحد، الامر الذي ينتج علاقات تتفق مع هذا الوضع، بحيث تتجه العلاقات بينهم الى التمركز حول الذات لتصل الى الانانية بفعل الصراعات التي قد تنشأ بين النساء والاطفال.

ان الاب او المسن الذي يمتلك زمام الامور الاقتصادية يصبح مصدر التوجيه وفرض ارائه وتصوراته بل قد يذهب بعيدا لانتاج نمط من العلاقات الداخلية للأسرة بحيث تتمحور الاسرة حول الكبير الذي يتمظهر على الخصوص في الكبير او المسن.

ان هذا التحليل للعلاقات في الاسرة الجزائرية المعاصرة قد يظهر لنا مدى اهمية الدور الاقتصادي والاجتماعي الذي يلعبه المسن من خلال امتلاكه للمجال الجغرافي الذي يتوزع عليه افراد الاسرة (المسكن) وايضا للتموين الاقتصادي خصوصا اذا كان الابناء بطالين او متزوجين ومن ذوي الدخل الضعيف ( مصروف، محل تجاري..).

اما في الاسر التي يتميز فيها المسن بالضعف الاقتصادي ولا يملك مجالا جغرافيا يتموقع عليه الابناء، يصبح معتمدا على ابنائه الذين يميلون الى التحرر من ارائه واومره وتوجيهاته، بل قد يميل بعض الابناء منهم الى التمرد عليه معتبرين اياه انه سبب شقائهم وانه لم يستطع توفير ثروة لهم يمكن الاعتماد عليها في تاسيس حياتهم المستقبلية.

وقد يلتجأ الابناء الى مقارنة جدهم او ابيهم بالآخرين من حيث مستوى معيشتهم، بحيث لا يربطون الرفع من المستوى المعيشي بجهدهم بل بالميراث الذي يمكن ان يحصلوا عليه.

فالشيخ هذا الذي هو في هذه الاسرة يصبح في نظرهم ثقلا يحملونه على مضض، فقط لان الامر يرتبط بالضغط الاجتماعي الذي يمارس عليهم من خلال قيمة العيب، او في بعض الاحيان يرتبط لديهم بقيمة دينية او عاطفية، تدفع بهم الى التعامل معه والحفاظ على كرامته.

غير ان هذا الامر قد لا يكون كذلك دائما خصوصا اذا تفرق الابناء واصبحوا مستقلين، في المجال الجغرافي فان الاهتمام بالمسن قد يضعف، ليصل في بعض الاحيان الى التخلص منه بوضعه في دار العجزة او تركه لدى احدى بناته على الخصوص المتزوجة بحيث يقيم معها اذا كان الزوج متفهما او يبقى منتقلا بين ابنائه الذي يشعرون بالضيق حين اقامته لدى احدهم، فهو لديه متطلبات كثيرة خصوصا الصحية التي قد لا يستطيع الابن تحملها.

اما الام العجوز، فان وجودها الدائم في مجال جغرافي مع كبتها، والتنشئة الاجتماعية في المجتمع الجزائري التي تقلل من الحواجز السيكولوجية والاجتماعية بينها وبين امها وبين النساء

الاخريات، بحيث يلاحظ انفتاح النساء على بعضهن البعض في جميع المواضيع دون استثناء حتى مع بناتهن، عكس الرجل الذي يستمد خبرته الاجتماعية والاسرية عادة من الخارج، فعلاقة الاب بالابن الذكر تركز على الاحترام والابتعاد عنه خصوصا اذا كان قد تناول مواضيع اجتماعية قد تهم الابن، فان هذا العامل يجعل مجال الاتصال بين العجوز وكناتها وايضا بينها وبين بناتها مفتوحا، الامر الذي قد يجعل من اصدام العجوز باحدى كناتها على الخصوص امرا واردا، بحيث ينشا الصراع المباشر بينهما حول السيطرة والهيمنة على قرارات الزوج ( الابن ). فتعمل الام على مقاومة الاستقلالية لدى الابن، باعتبار انها مرتبطة به وجدانيا وانفعاليا واجتماعيا وحتى اقتصاديا، كما انها تعتقد انه يوفر لها الحماية الاجتماعية والنفسية عند عجزها (عندما تصبح مسنة او عاجزة)، لان في مجتمعنا لا زال التكفل بالمرضى يرتبط بالابن او القريب، والدولة ليس لها ضلع في ذلك، بل يذهب افراد المجتمع اعتبار دار العجزة مؤسسة لرمي الكبار فيها فقط، وهم لا يعتبرونها مؤسسة تكفل للمسنين .

اما الزوجة (الكنة) فتقاوم من اجل الاستقلالية وكسر العلاقة العاطفية والاقتصادية بين زوجها وبين الاب او الام على الخصوص، وذلك بغية تحقيق ذاتها الاجتماعية منفردة بعيدا عن جماعة العائلة خصوصا اذا كان لها ابناء تعتبرهم دافعا فعالا من اجل اقناع زوجها لبناء مستقبل مستقل لهم بعيدا عن عائلة الاب.

ومن جهة اخرى فان حاجتها العاطفية والنفسية نحو ابويها تعمل على تثبيتها وتنميتها، بل تذهب الى الاعتناء بامها او ابيها ان كان مسنين بموافقة زوجها الذي تقنعه بذلك من خلال ترك مجال حرا له يسمح للاتصال بابويه وقد لا يتعدى ذلك الى الاعتناء بهما شكليا.

#### الاسرة المهاجرة من الريف الى المدينة والمسن:

لا حظت بعض الدراسات التي من بينها دراسة جان لويس لينارس Juan Luis Linares ان انتقال العائلات الريفية الى المدينة قد شكل صعوبات ترتبط بالتكيف لدى المسنين، فقد مثل لهم ذلك صدمة مع الحداثة، واصبحوا غير متكيفين مع الوضع الجديد وذلك من خلال تركهم لمهنتهم التي كانوا يمارسونها في الريف. الامر الذي يكون قد حدث لبعض العائلات الجزائرية خصوصا في السنوات الاخيرة (العشرية السوداء) التي اجبرتهم على الرحيل، فانقل المسن من محيط

اجتماعي واقتصادي وثقافي كان يعيش فيه الى محيط اخر، الامر الذي جعل منه اقل تكيف، باعتبار ان الفرد كلما تقدم في السن يقل تكيفه مع المحيط الجديد لاعتبارات صحية وعضوية وعقائدية وثقافية. ..الخ. فمن بين خصائص الشخص المسن، تمسكه بمعتقداته ولا يترك مجالاً لاقتناعه بتغيير سلوكه واكتساب خبرات جديدة، فهو يقرر دائماً وايضا يختار ما هو لائق به.

ان صعوبة تكيفه والخصائص التي يتميز بها المسن قد تصطمم بافراد الاسرة الذين هم من الجيل الثاني او الثالث، فهو قديم بالنسبة اليهم لا تفيد افكاره او توجيهاته فيما يعملون في الزمن المعاصر وايضا في المحيط الجديد، الامر الذي يراه هو خروجاً على طاعته واستهتاراً بسلطته، وقد يصل به الامر الى الشعور بعدم الفائدة والتخلي عليه وعدم اهميته في الاسرة . فقد اصبح افراد اسرته لا يولون اهتماماً لحاجاته النفسية والاجتماعية بل تقتصر احياناً على الجانب الاجتماعي فقط، وقد انعكس هذا الوضع الاجتماعي الجديد الذي اضحى المسن يعيشه على توافقه النفسي والاجتماعي، فقد اشارت دراسة طلعت منصور (1978) ان للمسنين حاجات متعددة ترتبط بممارسة انشطهم المختلفة في حياتهم، فهم بحاجة الى تحقيق التوافق مع قدراتهم وحالتهم الجديدة. ..و مقدار ما يتحقق لديهم من رضا ذاتي.(نادية أبو دينار 2002)

### خلاصة

وفي الاخير فاننا قد نخلص الى ان التغيرات التي مست بنية الاسرة وتغير الادوار فيها وايضا وظائفها انعكس على المسنين داخلها بنوع من السلب وذلك لعدم اخذ بعين الاعتبار حاجاتهم النفسية والاجتماعية والصحية، ولغياب ثقافة جديدة تتماشى مع التغيرات الجديدة التي مست بنية المجتمع وثقافته بحيث تعمل على تحسين وضع المسن داخل الاسرة وايضا اليات لدمجه في الوضع الجديد، حتى يصبح المسن مساهماً في العلاقات الاسرية بشكل ايجابي ومفيداً في الجانب الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع. فقد اشارت وزارة التضامن الى ان عدداً يفوق 52 مسننا بنوا مشاريع اقتصادية من خلال القرض المصغر الامر الذي يشير الى ان فكرة المسن انه انتهى اجتماعياً واقتصادياً لا زالت قائمة الى عند القلة القليلة فقط.

## المراجع :

1. بن علي (2009) الادوار والوضعيات داخل الاسرة الجزائرية المعاصرة مجلة شبكة العلوم النفسية العربية العدد 21 - 22
2. كريمة بوعزيز (2013)
3. جان جيرين (2003) Jean Gérin.
4. نادية عبده عوض ابو دنيا فعالية برنامج لتعديل اتجاهات المسنين نحو الشيخوخة. مجلة علم النفس ص22 العدد 16 أبريل، ماي، جوان 2002. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
5. La lettre de centre national d'analyse pour population et developpement n°52 decembre2003.
6. <http://arabpsynet.com/Journals/p/P62.HTM#>